من المسلمين في لبنان

إلى "المسلمين اللبنانيين":

توجهات المواطنة وسياساتها وإحباطاتها

رضوان السيد

I

يحفل الشرق، وبخاصةٍ الشرق الأوسط، بالهويات المتمايزة والمتنافسة والمتصارعة، والتي لا يحتويها إلاّ كيانٌ واسع صاحب دعوى شمولية وغلبة تتجاوز وتضبط الهويات الداخلة تحت سيطرته. إنما في الزمن العالمي للدولة القومية، صار من مهام الهويات نفسها، بعد تحطم السلطنات والإمبراطوريات، وبناءً على حقّ تقرير المصير، إقامة كياناتٍ وطنية على سِمة وسَمْت الدولة القومية في أوروبا. وهكذا فإنّ الهوية المتحولة إلى كيان منفرد بالمفهوم الحديث الأمني والقانوني والتنظيمي، احتاجت لكي تقوم وتستقر وتستمر وليس في لبنان فقط؛ إلى عدة عناصر إضافية: الدولة الخارجية الحامية وهي في حالة لبنان السلطة المنتدَبة- والنخبة ذات الإرادة السياسية والتي تمتلك القيادة والتوجيه - والتأصيل أو التاريخ المتخيَّل الذي يعطي الكيان الجديد سِمات الأصالة والتأبيد والأحقية. وما امتلك الكيان الجديد في لبنان هذه الشروط بالحدّ الأدنى بعد قيامه عام 1920 واستتبابه بالدستور عام 1926 والذي سمَّى اللبنانيين "أمة" - إلاّ زُهاء الأربعة عقود على وجه التقريب. فقد جلا عنه الفرنسيون عام 1946، وانقسمت القيادة المسيحية في عمليات الصراع على السلطة منذ الخمسينات، وظهرت إسرائيل على حدوده عام 1948، وتطلّع المسلمون من بين مواطنيه إلى نجم جمال عبد الناصر البازغ في سماء العروبة آنذاك. وقد حاول الرئيس فؤاد شهاب(1959-1965) ترميم شروط الحماية للكيان بطريقتين: التحالف مع مصر جمال عبد الناصر، واستنهاض وعي وطني داخلي من طريق إطلاق عمليات إقامة دولة المؤسسات، ونشر فكرة وممارسات الإنماء المتوازن. بيد أنّ التأثيرات الإيجابية لحراك فؤاد شهاب تضاءلت حتى قاربت الزوال في العقد اللاحق(1965-1975)، فقد بدأت حركة المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل من المخيمات الفلسطينية بلبنان عام 1965، وتمردت شرائح مسيحية وازنة على توازنات فؤاد شهاب(1968)، ومات جمال عبد الناصر عام 1970 فتغيرت سياسات مصر العربية، وعادت المطامح السورية لتحويل لبنان إلى منطقة نفوذٍ لدولة البعث.

لماذا هذه المقدمة، ما دام الحديث عن المواطنة ووعيها وحراكها وفعالياتها وفاعليتها لدى المسلمين في لبنان؟

لأنه كانت جمهرةٌ من المسلمين، حتى ممن كانوا يعملون في إدارة الشأن العام، تعتقد منذ قيام لبنان أنّ مواطنتهم منقوصة، فقد قام الكيان رغماً عنهم وهم أُلحقوا به بدون إرادتهم، وأنّ هويته مسيحية فرنسية، وأنّ هناك تمييزاً في المعاملة لديه أساس دستوري. وقد تراجع هذا الإحساس بعض الشيئ بسبب تعاوُن نُخَب الطرفين في إخراج الفرنسيين، وظهور مبدئيات وسياسات الميثاق الوطني. ورغم اهتزاز هذا المعنى وسياساته أيام الرئيس شمعون؛ فإنّ نوعاً من الانتعاش حصل لدى المسلمين بسبب سياسات الرئيس فؤاد شهاب الخارجية والداخلية؛ إلى حين ظهور المشكلة الفلسطينية وموت عبد الناصر وتعملُق الخصوصية المسيحية من جديد، وتبادل الاتهامات بين الأطراف المتصارعة بشأن الولاء الوطني على مشارف الحرب الأهليةعام 1975. وكان من ضمن ذلك صدور كتيبات ضد الإسلام، وغربة المسلمين عن الكيان، وأنهم دخلوا في المؤامرة الفلسطينية على لبنان. وأنا أذكر هنا وقائع أثرت وقتها في وعي المسلمين. لكنّ المسلمين، وما كان يُعرف بالحركة الوطنية لم يقصَّروا، حين أعلنواعن عزلٍ سياسي لليمين المسيحي. وقد كتب الدكتور حسين القوتلي مدير دار الفتوى وقتها مقالةً في جريدة السفير قال فيها إنّ المسلمين مأمورون بمقتضى دينهم بإقامة دولةٍ إسلامية، والمنطق المسيحي إرادة إقامة دولة للمسيحيين. ولكي يمكن البقاء في العيش معاً في وطنٍ ودولة، لا بد أن يتنازل كل طرفٍ عن دعواه الدينية، لكي تكون الدولة للجميع! لقد وقع تصاعدٌ في الصراع الداخلي بشأن الحركة المطلبية الإسلامية، والمقاومة الفلسطينية، وإلى الغزوين الإسرائيليين عامي 1978 و1982. وكما في كل النزاعات الداخلية؛ فإنّ كلاً من الطرفين كان يعتقد أنه هو المظلوم، وأنّ الطرفَ الآخَرَ هو المعتدي عليه وعلى الوطن. وأذكر في هذا الصدد كلمةً للراحل الشيخ بيار الجميِّل في ذِروة التأزم قال فيها: كل الناس يختلفون فيما بينهم، ومهما بلغت حِدّة النزاع تبقى هناك مساحة للمصالحة والتفاهم بسبب وجود المصالح المشتركة، ووجود الوسطاء الذين يمونون، حتى عندما يكون الخلاف بين الأخ وأخيه، ومصيبتُنا في لبنان اليوم اختفاءُ الوسطاء الذين يتمتعون بالمَونة والنزاهة، لا في الداخل ولا في الجوار.

II

بعد الغزو الإسرائيلي عام 1982، كان هناك إحساسٌ غلاَّبٌ لدى المسلمين جميعاً بالهزيمة. وقد حضرتُ جزءًا من الاجتماع الذي حصل بدار الفتوى في شتاء العام 1983،

وحضره في مكتب المفتي خالد: الرئيس صائب سلام، والرئيس حسين الحسيني، والشيخ محمد مهدي شمس الدين، وكانت أهم الموضوعات المطروحة:

- اضطرار الإدارة اللبنانية للتفاوض مع إسرائيل من أجل الانسحاب في مقابل معاهدةٍ للسلام بين الدولتين: وما الرأي في ذلك؟
- وهل تنتهي الحرب الداخلية بخروج العامل الفلسطيني من الساحة اللبنانية؟
- ومدى قدرة الدولة على إعادة إعمار المناطق التي خربتْها الحرب، وخرّبها الاجتياح الإسرائيلي المستمر الوجود في كثيرٍ من المناطق.
- والمطالب الإسلامية القديمة والمستجدة بشأن الإصلاح الدستوري، والتي لم يتحقق منها شيئٌ بعد، وليس في الأفق شيئٌ مطمئن.
- وسوء تصرفات الجيش في بيروت الغربية والضاحية الجنوبية بعد عودته إليهما.

ويومها جرى الاتفاق بين الشيخين على ما سُمّي في الاجتماع **بسياسات المواطنة** التي يكون على القيادات الدينية الإسلامية اتّباعُها إلى جانب ما يمكن أن يقومَ به السياسيون. أما **الجانب الأول** من "سياسات المواطنة" فيقومُ به الشيخان في صلاةٍ جامعةٍ بالملعب البلدي، ويكون مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد هو الذي يُلقي خطابَ المظالم والمطالب. وأما **الجانبُ الثاني** من تلك السياسات فيتمثل في مبادرةٍ من دار الفتوى في قمةٍ إسلاميةٍ جامعةٍ أيضاً تجاه المسيحيين، وتجاه الدولة، سمّاها الشيخ شمس الدين: "مبادرة الثوابت العشر".

كانت التسمية جديدة، كما كان جديداً أيضاً العبارات التي استعملها المفتي خالد في خطاب الملعب البلدي، من مثل لا ينبغي أن يكونَ في الدولة اللبنانية مواطنون من الدرجة الأولى، وآخرون من الدرجة الثانية، كل اللبنانيين هم مواطنون من الدرجة الأُولى. أما الجيش اللبناني فهو الجيش الوطني، وينبغي دعم قُدُراته لكي يحرر الأرض من الاحتلال الإسرائيلي؛ وليس لكي يدخل إلى بيروت الغربية والضاحية كأنه جيشٌ غازٍ. أما إعلانُ" الثوابت العشر" فهو حافلٌ بعبارات الحرية والمواطنة والمساواة، وقد جاءت فيه العبارة التي صارت شهيرةً وهي أنّ لبنان وطن نهائي لجميع بنيه، بدون تفرقةٍ ولا استئثارٍ ولا تمييز. وأنّ الحقوق التي يطالب بها المسلمون اللبنانيون تقابلها الواجبات التي لا يصح الخروجُ منها ولا عليها، والتي يقتضيها العيشُ المشترك. وأولُ تلك الواجبات على الجميع إنهاءُ النزاع الداخلي بأي ثمن. وهو الواجب الأول على القيادات الدينية والسياسية. وهو الضرورةُ القُصوى والذي بدونه لا يمكن إخراجُ العدوّ الإسرائيلي من أرض الوطن.

وليس المقصود هنا تتبع مسارات الأحداث حتى اتفاق الطائف عام 1989. لكن يمكن تمييز مسارين رئيسيين: **مسار الجهود** السورية لاستعادة بيروت ولبنان بعد ضربة العام 1982- **ومسار سياسات** المواطنة وثوابتها العشر والذي أخبرني الشيخ محمد مهدي شمس الدين فيما بعد أنّ الشيخين اتفقا عليه مع البطريرك صفير عندما ذهبا لزيارته معاً وتهنئته بتولّي سدة البطركية. وكما نعلم فإنّ البطريرك والمفتي خالد ذهبا للكويت للاجتماع باللجنة العربية السداسية للوساطة، وبعدها قُتل المفتي خالد، ثم حوصر البطريرك من جانب الجنرال، وإنْ لسببين مختلفين أو متناقضين: هذا لأنه أراد إنهاء النزاع من غير الطريق السوري، وذاك لانه أمّن رعايةً مسيحيةً لاتفاق الطائف.

لقد أفضى هذا المسار المتعرج والصعب إلى اتفاق الطائف أخيراً. وإذا كان اتفاق الطائف قد أخرج لبنان من الحرب الداخلية؛ فإنه ثبّت لسوء الطالع أمراً آخر وهو أنّ الكيان اللبناني – وبسبب الانقسام العميق، بين اللبنانيين المسيحيين، والمسلمين اللبنانيين- لا يستقرّ وقد لا يستمرُّ إلاّ برعايةٍ خارجيةٍ تُهيمن فتضمن الاستقرار، لكنها تضمن أيضاً بقاء الانقسام الضروري للهيمنة ذاتِها!

III

لا أُريد العودة إلى قراءة اتفاق الطائف، فقد قُرئت محاسنُهُ ألوف المرات، وكذلك نواقصُهُ وسيئاته. وأنا أرى أنّ فيه ميزات ونواقص بالفعل. بيد أنّ أهمّ ميزاته ما جاء في مقدمة وثيقة الوفاق الوطني والدستور، وهو أنه أقام كلَّ شيئٍ على العيش المشترك، وهو تاريخٌ وحاضرٌ ومستقبل، وإن لم يقترن بوعيٍ ملائم، وهو يمتلك إمكانياتٍ هائلة. المهم أنّ المسلمين اعتبروا اتفاق الطائف انتصاراً، بينما اعتبرته كثرةٌ من المسيحيين هزيمة. وبدا ذلك بوضوح في مقاطعة الانتخابات عام 1992. زُرتُ البطريرك صفير بعد القبض على الدكتور جعجع، فذكرتُ له خلال الحديث أنّ الدكتور جعجع اعتبر اتفاق الطائف ضرورة. فضحك وقال لي إنّ صديقه المفتي حسن خالد كان يكمل الكلام بضرورة هذا الأمر أو ذاك، بالقول: والضروراتُ تُبيحُ المحظورات! وتابع البطريرك: لماذا يفرحُ المسلمون إلى هذا الحدّ بالطائف، فحتى المواطنة التي يدندنون بها منذ الثوابت العشر عام 1983 هي في الطائف محدودة الآفاق بالضمانات التي أُعطيت للمسيحيين، والمسيحيون مهجوسون بأنّ شيئاً لن يبقى مضموناً إذا بقي السوريون في لبنان، وإذا ظلّت عامة المسلمين تعتبر انها لم تستوف كلَّ حقوقها بمقتضى التفوق العددي! وقلت: إنّ الرئيس الحريري يقول: لقد أوقفْنا العدّ، والمناصفة لن تتزعزع في وعينا وعملنا السياسي، وهو يراهن على أنّ اللبنانيين يختلفون على الماضي، لكنهم يُجمعون على المستقبل. وسياساتُ الإعمار والازدهار الاقتصادي ستُنهي كل المشكلات.

لكنّ البطريرك لاحظ أنّ الإنسان يعيش على الذاكرة، وإلاّ فكيف يكونُ إنساناً؟ المسيحي يخاف من التجارب الماضية، ويخاف أن تتكرر في المستقبل، والمسلم يحنُّ إلى الماضي البعيد، ويريد استرجاعَهُ في المستقبل!

ما طُبّق مما نصّ عليه الدستور إلاّ التسوية في أعداد النواب والوزراء وموظفي الفئة الأولى. أما بقية ما اعتبرها المسلمون إصلاحات باتجاه المواطنة فلم يُطبق بسبب وجود السوريين، وبسبب تحفظات المسيحيين، ثم ما اعتبروه مساساً بصلاحيات رئيس الجمهورية.

... واستشهد الحريري للسبب نفسِه الذي استُشهد بعلته المفتي حسن خالد. المفتي خالد ما فقد الأمل بالداخل اللبناني، وتطلع إلى الداخل العربي الأوسع. والرئيس رفيق الحريري اعتمد حقاً على العيش المشترك ومفاعيله المستقبلية على المستوى الوطني. وقد قتله إيمانُهُ هذا، لكنه كان محقاً في تقدير ضخامة وعي العيش المشترك. إذ أدى استشهاده إلى قيام ثورة الأرز التي اجتمع على نهضتها اللبنانيون. وما شهد لبنان الحديث شبيهاً لهذا النهوض الشامل، إلاّ نهضة الاستقلال الأول1943-1945. فالشبان المسيحيون نسوا هواجسهم وانخرطوا في حركة الاستقلال الثاني بدون الحاجة إلى قوةٍ مهيمنةٍ وراعية. والمسلمون تقدموا الصفوف باعتبارهم مواطنين لبنانيين من الدرجة الأولى.

بيد أنّ هذا الوعيَ الجديدَ/القديم ما لبث أن تخلخل (2005-2010) باستمرار القتل والاغتيال، وحرب العام 2006، واحتلال بيروت عام 2008، وتغير السياسات الدولية، واجتماع قوتين سياسيتين معاديتين للطائف والدستور على مناضلة الحركة الاستقلالية. **الأولى** تستقوي بالسلاح، وتقول إنّ من حقّ الذين حرروا الوطن من إسرائيل أن يحكموه- **والثانية** ترى أنه لا حياة للمسيحيين ولا مستقبل إلاّ من ضمن "تحالف الاقليات" في هذا الشرق المخيف.

في ندوةٍ بمعرض الكتاب العربي والدولي عام 2010 فاجأني أُستاذُنا المفكر الدكتور ناصيف نصّار بالقول: لماذا هذا الغرام المنقطع النظير باتفاق الطائف، هل لأنه جرى في السعودية؟ هل لو كان الاجتماع قد جرى في سورية تظلُّ على نفس الحماس له؟ وأجبتُ: تظن أنني سأُجيبك بأنّ المهمَّ هو المضمون وليس المكان، وأنا أرى في الحقيقة أنّ مكان الاجتماع مهمٌّ جداً. ففي سورية ما كان يمكن أن يقع إلاّ "الاتفاق الثُلاثي" وأشباهه، والذي أنجزته بإشراف السوريين الميليشيات المسلحة التي خاضت الحربَ الأهلية، أما السعودية والكويت وحتى مصر، فما عرف تاريخنا الحديث مطامح لها بالسيطرة على لبنان. والأمر الآخر هو أنّ دستور الطائف يقوم على العيش المشترك بين اللبنانيين، وقد أنتج أو جدَّد نظاماً سياسياً

طمح إلى الخروج من حالتي الغُبن والخوف، وكلامك، وما يجري من حولنا، يدلاّن على أننا لم ننجح في ذلك.

نحن اليومَ في حالة اللادولة. طوائف متجاورة، لكلٍ منها إدارة سياسية مستقلة. ويحكمها بالتنمُّر ووهج السلاح حزبٌ غالبٌ مُوالٍ لولاية الفقيه الإيرانية؛ هو الذي يشكّل الحكومات ويفرطُها أو يحولُ دونها. وكل الطوائف الأُخرى تُحاولُ تقليده بشأن وحدة الطائفة، وبشأن الاستقواء، وبشأن السماح لحلفائه وأنصاره والمستسلمين لتغوُّله بالتصارع على الوزارات والمناصب وصفقات الفساد.

****

كان موضوع هذه المداخلة تقدير إسهامات المسلمين اللبنانيين في مسألة المواطنة، فهل نجحتُ في ذلك؟ لا أظن أنني نجحت، كما أنّ المسلمين لم ينجحوا، لأنّ المواطنة وسواء أكان حاملو فكرتها مسلمين أومسيحيين أو بوذيين، إنما يمارسها شعبٌ في دولة. وقد حاول اللبنانيون إقامتها ثلاث مرات، وفشلوا ثلاث مرات. حاولوا إقامتها إبّان الاستقلال الأول في الأربعينات. وحاولوا إقامتها أيام فؤاد شهاب في الستينات. وحاولوا إقامتها في ثورة الأرز وحركة الاستقلال الثاني عام 2005. وفشلوا في ذلك ثلاث مرات: إبّان النزاع الداخلي والسطوة الفلسطينية في السبعينات، وإبان السطوة السورية في الثمانينات والتسعينات، وخلال سيطرة حزب الله الإيراني في العقدين الأخيرين.

ولنختم بموضوع المؤتمر وهو مستقبل المسيحيين في الشرق الأوسط. المسيحيون فئاتٌ رائدةٌ في هذا الشرق العربي أو الذي كان كذلك. وريادتُهم تتمثل في صنع النهوض والحداثة، وفي نشر أفكار وممارسات التقدم والاستنارة في أوساطهم وأوساط مجتمعاتهم العربية. فإذا نظرنا إليهم على هذه القاعدة، وبهذه المقاييس؛ فإنّ المستقبل يظلُّ طوع عقولهم المبدعة، وأيديهم الصانعة. ولا يستطيع أحدٌ أن يسلبهم هذه الميزات والقدرات البارزة. أما إذا نظرنا إلى مستقبلهم في هذه المنطقة بمقاييس صناعة الدول وإدارة الأزمات؛ فإنّ الأمر يصبح مختلفاً. لكنهم لا ينفردون بهذا الفشل الذريع، بل إنه يشمل جيرانهم ومواطنيهم من المسلمين، ومن العرب الآخرين الذين ما نجحوا في إقامة دولٍ ولا مجتمعاتٍ مستقرة، وبالطبع فهم يتحملون المسؤولية الأكبر.

لقد اعتاد ابن خلدون في مقدمته المعروفة أن يُنهي فصولها حول قيام الدول وتصدعها بإثبات الآية القرآنية: {وتلك الأيام نُداولُها بين الناس}. نحن أكثر من أربعة ملايين لبناني. وقد حاول الفلسطينيون وحاول السوريون من قبل السيطرة علينا ولم ينجحوا. والآن بل ومنذ مدة،

يشعر حزب الله بالانتشاء نتيجة التغلب على مؤسساتنا بالإرهاب. فهل نخضع للارتهان، هذا ليس خياراً، لأنه كمن يتلذذ بلحس المبرد؛ طيب، هل نهاجر، شأن ما فعل شعب السيدة فيروز انتقاماً من حاكمه المستبد؟ هذا أيضاً ليس حلاً لا في النظرية ولا في الواقع. لا حلَّ إلاّ بأن نحاول للمرة الرابعة إقامة دولة المواطنة والحكم الصالح، مستفيدين من دروس المحاولات الثلاث السابقة.

بيروت في 2018/11/11